النصيّات العربية والغربية مقاربة في البنى والدلالات

م.د وسن عبدعلي عطية

جامعة القادسية / كلية التربية

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/١١/٣٠
تاريخ القبول ٢٠٢١/١٢/٢٩

الملخص :

يهدف البحث إلى وضع مقاربة لغوية مفهومية ، لبعض من مفاهيم علم ، يمكن أن نصفه بالحديث – علم النص – الذي تجلت صورته في الساحة اللغوية مع بداية السبعينيات من القرن العشرين ، هذا العلم الذي عُدَّ مستحدثاً في الدراسات الغربية ، أقبلَ الباحثون العرب على دراسته ، ونظروا ؛ بأنّه فتح في هذا المجال ؛ لأن المصنفات العربية القديمة في نظرهم تفتقر إلى نظرية مستقلة بنفسها ، وفق الفهم الذي قدمه الدرس النصي الغربي للسانيات اللغة .

وقد وقع الخيار على مصنف من المصنفات الغربية التي تناولت هذا العلم بالشرح والتوضيح ، وبيان معالمه وأسسه هو (النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) لمؤلفه فان دايك ، هذا الأمر يمكننا من عقد مقاربة مع الفكر العربي – النصيات العربية– وما مدى درجة التقارب بين الفهمين ؟

Arabic and Western texts: An Approach of Structures and Meanings

ABSTRACT

The aim of the study is to develop a conceptual linguistic approach, to some of the concepts of science, which can be described as the science of text. This field is manifested in the linguistics in the early 1970s. This field is considered new for the western world. Arabs started to study it and they considered it a new science worthy to be studied. Ancient Arab classifications lack a separate theory on its own according to the understanding given by the western textual studies.

The choice has been made to one of the Western compilations that dealt with this science “the text and context: semantic and pragmatic discourse: an investigation of discourse by Van Dyke. The study will help us make an approach with the Arabic thinking- Arab texts and how the two concepts are close.

المقدمة :

كانت بداية البحث النَّصّيّ على يد العالم اللغويين الإنجليزي هاليدي ، ورقية حسن من خلال مؤلفهم " الاتساق في اللغة الانكليزية" ، تحدثا فيه عن مفهوم النَّص ، والاتساق النصي ، وعلاقته بالبنية اللغوية ، والاتّساق ، والنسيج ، والرّبط ، والإحالة النصية بنوعيها السياقي والمقامي ، ومفهوم الاستبدال وهو من وسائل الاتساق النصي .

ثم توالت المحاولات لتقديم عمل ناضج متكامل ينتقل بواقع الدِّراسات اللّسانية، من نحو الجملة إلى نحو النص ، ثم جاءت محاولة فان دايك بمجموعة من المؤلفات ، دعا فيها إلى ابتكار طرائق جديدة في وصف النصوص وتحليلها باعتبار النص بنية كبرى ، وتحديد القواعد التي تتحكم في تصور المعنى الكلي للنص[١]، ومن الأسباب الفعليّة التي دعت الدَّارسين لهذا الانتقال هي[٢]:

١- حاجة الدِّراسات اللّسانية إلى الخروج من إطار الجملة وسلطتها المعيارية ، إلى دراسة الدَّلالة ، والسياق ، والاتصال بالعلوم الأخرى.
٢- يعد النص الوسيلة الأساسية للتواصل بين الناس لذا يتوجب أن يكون هو المقصود بالتحليل اللّسانيّ.
٣- افتقار نحو الجملة إلى دلالة كُليّة ؛ لأنّها تبحث عن العلاقات داخل إطار الجملة الضّيّق ، بخلاف نحو النص الذي يُشارك في ربط أوّل النَّصّ بآخره ، ويقوم على اتساق النص وانسجامه.

فالهدف الرئيس من علم النص هو ، تجاوز حدود الجملة إلى أفق النص ، وربطه بمبدأ التواصل ، الذي يمثل المرتكز الأساس للتحليل اللساني ، لذا سيعمد البحث في بيان هذا التوجه من مطلبين ، يتقدمهم مُدخل ، منطلقاً من فكر فان دايك في كتابه " النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي" :

المطلب الأول : السيمانطقيا (الدلالة).

المطلب الثاني : البراغماتية (التداولية).

مُدخل :

حاول اللساني الهولندي فان دايك من خلال كتابه " النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي" ، أن يُقدم دراسة أشبه بالمتكاملة في علم النص ، فالدراسات النصية السابقة عليه ، تنظر إلى الجمل والقضايا كوحدة متكاملة غير منفصلة داخل هيكلية النص العامة ، فحصرت دراسة النص في بنيته اللغوية ، بينمّا سعى فان دايك للخروج بالنص إلى فضاء أوسع ، فضاء التداولية ، وبذلك خالف علماء النصيات الذين نظروا للنص ؛ بأنّه أكبر وحدة اللغوية يمكن تحليلها ، من دون النظر إلى مجالها الأستعمالي.

فجاء كتابه مقسماً على قسمين : خصص القسم الأول : للسيمانطيقا ، والقسم الثاني: للتداولية ؛ إذ يقول: " ففي السيمانطقيا ننطلق من دراسة شروط الترابط بين القضايا كما يعبر عنها بالروابط الطبيعية إلى شروط الاتساق الأخرى للخطاب على مستوى المتواليات ، ثم على مستوى البنيات الكبرى السيمانطقيا الشاملة، وهذا هو

القسم الأول ، وفي القسم الثاني ، أو القسم التداولي ، قد أُعيد أخذ بعض هذه الظواهر مرة أخرى باعتبار أفعال الكلام ومتواليات أفعال الكلام"[٣] ، وفي كلامه إشارة إلى علم دلالة النص بسياقاته المختلفة كيف خدمت وحدة النص ؟ وكيف لعبت دوراً في انسجامه واتساقه ؟ من خلال مجموعة روابط ساعدت في فهم البنية العميقة للنص ، لينتقل بهذه البنية إلى مجال لغوي استعمالي أوسع ، هو المجال التداولي متخذاً من نظرية أفعال الكلام لأوستن منطلقاً له .

المطلب الأول : السيمانطقيا (الدلالة) :

كما ذكرنا آنفاً بأن البحث يسعى لعقد مقاربة بين درسين لسانيين ، قد تشابها في بعض خطوط فهم المنظومة اللغوية ، فكيف كان ذلك الفهم ؟ وأي الدرسين أسبق في وضع معالم المنظومة اللسانية ؟

نبدأ اولاً بطرح فكر فان دايك وفهمه لهذه المنظومة ، ثم نعقب بالدرس العربي للفهم نفسه ، تحدث فان دايك في القسم الأول عن علم الدلالة ، من خلال التكلم على :

١- **الترابـــط** : متمثلة بعلاقة حبكة النص ، وأثرها في إنشاء نص متسلسل ، مترابط شكلاً ومفهوماً، من خلال ما أسماه " شروط الربط السيمانطيقي" ، ولبيان قصده يعرض مجموعة من الأمثلة سنوردها كما ذكرها .

١- أ : جون أعزب ، إذن هو غير متزوج.

ب: جون أعزب ، وعلى ذلك فهو يشتري أغاني كثيرة.

ج: جون اعزب ، إذن امستردام هي عاصمة نيثرلاند

٢- أ : ولأن جون لم يكلف نفسه عناء العمل فقد رسب في الامتحان .

ب: ولأن جون لم يكلف نفسه عناء العمل فقد قبلته ماري على خديه .

ج: ولأن جون لم يكلف نفسه عناء العمل ، فإن القمر يدور حول الأرض .

٣- أ : إن أمستردام هي عاصمة نيثرلاند ، عدد سكانها ٨٠٠٠٠٠٠ نسمة.

ب: أمستردام هي عاصمة نيثرلاند ، هل تحب أمستردام .

ج: أمستردام هي عاصمة نيثرلاند ،وبموجب ذلك أعلن افتتاح الجلسة .

يشرع فان دايك في بيان حبكة النص، بقوله : " لقد أخذنا مجموعة من الأمثلة المتنوعة ... وفي كل زمرة (أ) يظهر أن أمثلتها سائغة تماماً ، وفي أمثلة (ب) يشبه أن تكون أقل قبولاً ، أو أنها جائزة في أحوال مخصوصة ويشبه أن تكون أمثلة (ج) غير سائغة على الإطلاق ، فمّا هي القيود التي تحدد أحكامنا البديهية إزاء صفة القبول الدلالي لهذه الجمل أو الضروب من الخطاب"[٤] .

ثم يوضح سبب التدرج في قبول هذه الأمثلة من عدمه ، فالأمر غير متوقف على طبيعة الربط الشكلي للنص ، فإن الربط لا يتعلق بوجود الأدوات الرابطة ، وهذا لا يعني أن نغفل دورها في تماسك النص ، إذا ما تمَّ اختيار الرابط المناسب للمتوالية الجملية ، والقضايا داخل النص ، إلى جانب هذا الربط ، نحتاج الاستلزام المنطقي [٥]، أي سلامة الكلام من ناحية التركيب ، ومن ناحية الاستعمال ؛ ليكون مقبولاً ومؤثراً عند المتلقي ؛ لأنَّ الهدف الأساس من نظم الكلام ، وجعله رسالة مفهومة هو المتلقي ، وهذا تفريق بين الكلام المستقيم ، والكلام المحال ، و فهم واضح لعلاقة اللفظ بالمعنى ، هذه العلاقة بأسسها ، وجذورها وأصالتها فهم عربي لا منازع فيه ، فالتحليل الذي قدمه فان دايك لمجموعة الأمثلة الآنفة الذكر لم يك غائباً عن أول المصنفات العربية ، أقصد كتاب سيبويه ، فقد طرقها بقوله :" هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، فمنه مستقيم حسن، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب .

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمس وسآتيك غداً.

وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول : أتيتك غداً ، وسآتيك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك : حملتُ الجبل ، وشربت ماء البحر ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وكي زيد يأتيك ، وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب من ماء البحر أمس"[٦]

فالكلام العربي عند سيبويه محصور بين المستقيم ، والمحال ، وهذا إشارة ، "إلى منهجية متقدمة عرفها النحو العربي منذ ذلك العهد المبكر ؛ إذ تنبّه سيبويه على الوجوه المستقيمة، والوجوه المستحيلة في التراكيب اللغوية ،منطلقاً من مبادئ منهجه التحليلي الرابط بين نظام اللغة ، ومواقف استعمالها . فوضع احكاماً وضوابط لوصف الكلام بالاستقامة ، أو بالاستحالة ، تبعاً لملابسات الاستعمال اللغوي من المتكلم ، والمخاطب ، وموضوع الكلام وظروف القول "[٧]

نلحظ مما تقدّم من الأمثلة التي ذكرها فان دايك في بيان أهمية ترابط الكلام بصورة تركيبية ، ودلالية سليمة ينتج لنا نصاً متماسكاً يحمل سمات الإفهام والإقناع عند المتلقي ، هذا الفهم الغربي جاء مطابقاً للفهم العربي الذي يسبقه بقرابة أثني عشر قرن ؛ ولا نكون من المُغاليين ؛ إذ قلنا ، بأن الغرب أخذوا هذا الفهم من العرب فمسألة التأثر والتأثير لا مناص منها .

ومما يؤيد كلامنا حديث فان دايك عن أدوات الربط في اللغة الطبيعية ، فقد قسمها على نوعين : الروابط الطبيعية ، ويقصد بها الظاهرة على سطح النص ، المتمثلة بحروف العطف ، وبعض من أدوات الربط " لكن ،

بل "، والروابط المنطقية المتمثلة بعلاقة الشرط ، والفصل ، أي قائمة على الربط المفهومي الذهني عند السامع .

بدأ حديثه عن الروابط الطبيعية بحروف العطف ، وأطلق عليها تسمية الوصل (عطف التشريك) ، يقول :" ومن إحدى المسائل في سيمانطقيا الروابط الطبيعية هو وجود الالتباس والغموض فيها ، ذلك أن رابطاً واحداً بعينه يجوز أن يعبر عن مختلف أنواع الربط ، وأن نوعاً واحداً من الربط يمكن أن يعبر عنه بروابط مختلفة ، والشاهد على ذلك هو الربط التشريكي لحرف الواو في الجمل الآتية :

١- دخن جون السيجارة ، ودخن بيتر الغليون .
٢- ذهب جون إلى المكتبة وراجع قوائم الكتب.
٣- دخن جون السيجارة وغادرت ماري البيت.
٤- هب لي بعض الوقت وسأبين لك كيف يمكن أن يعمل.

ومن البديهي أن ضروب استعمال حرف الواو في هذه الجمل يمكن أن تخلص مثلاً في كونها أفادت نفس الوقت من جملة (١) ، وأفادت معنى هنا (المكان) في (٢)، كما أفادت في جملة (٣) معنى إذن، وفي (٤) ، أصبح معنى هذه الواو هو : إذا كان ... إذن كان حرف الواو يمكن في الظاهر أن يكون مستعملاً لا ليدل على الوصل بل ليدل أيضاً على الجزاء (الشرط) ، والتعليل والوقت "[٨] .

ويُفهم من كلامه أن دور العطف لا يقتصر على الربط بين مكونات الكلام ، وإنمّا يولد معان ودلالات من خلال ذلك الترابط بين شبكات النص ، وهذا ما ذكره الجرجاني في حديثه عن حروف العطف بقوله:" واعلم أنَّ سبيلنا أنْ ننظر إلى فائدة العطف في المُفرد، ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها"[٩]، فحروف العطف قبل اتساقها داخل النص تدل على معان ، وبعد اتساقها تتولد لها معان مفهومية منطقية ، تُفهم من خلال وحدة النص .

وهذه اللَّمحات عند العرب تُعد الأساس للترابط النصي ، وقواعد تشكيل النص من غير توقف وانقطاع ، وهذا دليل وعيهم وتنبههم بدقائق الاتصال وتعلق مكونات النص بعضها ببعض[١٠].

فالروابط الطبيعية لها دلالة مقصودة ؛ لكنها لا تربط قيم الصدق بالقضايا ، وقيم القضايا في العوالم الممكنة ، والمسلمات المتعارفة التي تصدق بالنسبة لأدوات الربط المنطقية لا تصح بالنسبة لأدوات الربط الطبيعية من علاقة التبادلية ، والترابطية ، والتعدية ، والتوزيعية[١١].

٢- اتساق فحوى الخطاب والبنيات الكبرى الشاملة:

لم يضع فان دايك مفهوماً لمعنى الاتساق إنمّا يقول :" وحتى تتميز خواص اتساق متوالية من الجمل ، فنحن نحتاج إلى سيمانطقيا ، وتكون مثل هذه السيمانطقيا في أساسها متناسبة ، على معنى أن الجمل لا تؤول حسب

نماذج معزولة بل متناسبة لكون تأويل الجمل المترابطة مندرجة في نماذج متصلة، وإنمّا تتحد العلاقة الموجودة بين الجمل باعتبار هذه التأويلات"[١٢]. يتضح من كلامه أنَّ مقبولية تتابع الجمل وتناسقها ، يتوقف على مدى ترابط الجمل بعضها ببعض ضمن علاقات يفرضها داخل النص وخارجه ، فتوصف الجمل، والمنطوقات بأنّها محبوكة إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض، في إطار نصي أو موقف اتصالي، اتصالاً لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات[١٣].

فجعل فان دايك العلاقات الدلالية ، وتدرجها المحور الرئيس في انتظام الخطاب وترتيبه ، وتماسكه بغض النظر عن نوع العلاقة ووظيفتها، فمن خلالها يمكن الانتقال داخل وحدات النص بأكمله من غير أن يكون هناك فاصلاً ذهنياً عند القارئ ، أو متلق النص ، ولم " يكن فان دايك أول من تناول فكرة تدرج الربط الدلالي فهذا حازم القرطاجني يتحدث عنها في معرض حديثه عن تماسك الفصل الواحد ، ومن بعده تماسك الفصول ، "والفصل الواحد يتماسك عندما تكون بين أبياته علاقات تقابل أو اقتضاء كالسببية والمحاكاة ، والتفسير ، ويكون له معنى عمدة يتخذ شكل القطب الذي تدور حوله بقية المعاني وتشكل محيطها"[١٤] ، فالحدث الرئيس هو المركز الذي تدور حوله قضايا النص ، و العلاقات الدلالية هي المسؤولة عن تنظيم شبكة المفاهيم وترابطها ، و التي بدورها تتآلف ، وتتناسق مع بعضها لبناء شبكة أكثر اتساعاً من حدود الجملة ، هي الأبنية الكبرى كما سماها فان دايك.

فالأبنية الكبرى تتمثل بموضوعات القضايا داخل النص الواحد ، التي تنتظم تحت جنس أدبي معين ، وعنوان واضح مستقل ، أو أن يُستدل عليها من خلال الجملة الأولى لذلك النص ، فالأبنية الكبرى ، تمثل الهياكل الرئيسة التي تنضوي تحتها موضوعات الخطاب الفرعية والقضايا ، " فلا تقوم العلاقات المتسقة بين الجمل على روابط مرتبة بين القضايا المعبرة عنها أو المحرفة فحسب بل تتأسس أيضاً على موضوع الخطاب "[١٥]، أي أن عنوان النص ، أو موضوعه يمثل المنطلق الأول لفهم النص ؛ لأن عنوان النص وسيلة من وسائل التغريض القوية ، فهو رسالة لغوية تحتل الصدارة في الفضاء النصي وتمتلك أولوية التلقي التي يقف عندها المتلقي لاستنطاق النص بخصائصه التعبيرية والجمالية والتحكم في تأويله[١٦]، فتأليف بنية كبرى في خطاب معقد هي خاصية ضرورية لمعالجة معلومات معرفية[١٧]، ؛لأن الشيء " الذي يستهل به المتكلم أو الكاتب حديثه يؤثر حتماً في فهم كل ما يأتي لاحقاً ، هكذا يؤثر العنوان في فهم النص الذي يتبعه ، كذلك تحد الجملة الأولى في الفقرة الأولى ليس فقط معنى الفقرة ، ولكن من معنى بقية النص "[١٨] ، فالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه الخطاب ، او أي نص أخر ، وعنوانه الرئيس ، والموضوعات الفرعية ، وتسلسل القضايا وترابطها داخل موضوعات الخطاب ، لها أثر بارز في تماسك وحدة النص الواحد ؛ لأنّها " تمكن المتكلمين والمستمعين من الحكم على ترابط الجمل والقضايا في سياق تواصلي معين ، ويعد فان ديك أن الشروط التي تجعل الخطاب مترابطاً شروط تواضعية وعامة ترتبط بمعرفة المتكلم والمخاطب بالعالم الواقعي وكذا العوالم الممكنة ، الشيء

الذي ينقلنا من الحديث عن وجهة النظر إلى قضية معينة أو إلى متوالية من القضايا إلى الحديث عن موضوع الخطاب"[١٩] هذا الفهم الذي قدمه فان دايك عند حديثه عن اتساق فحوى الخطاب ، والأبنية الكبرى .

وإذا ما عرضنا هذا الفهم على الدرس اللساني العربي ، نجد له تطبيقاً ، واتساعاً واضحاً ، وبالأخص عند المشتغلين بعلوم القرآن ، والمفسرين ، في علم أفردت المصنفات له ، أو جاء ضمناً بالمؤلفات ، أقصد علم المناسبة ، الذي عُني بدراسة العلاقات الرابطة بين الآية ،وما جاورها من آيات ، وبين موضوعات السورة الواحدة ، وعلاقة السورة بما قبلها وما بعدها ، وعلاقة اسم السورة بموضوعها، "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته"[٢٠] ، وهذا إشارة أن تماسك النص القرآني من أوله إلى أخره لا يتوقف على فصاحة التركيب فحسب ، وإنمّا حُسن الترتيب والنظم جعل منه نصاً معجزاً .

وكم من كلام فصيح سليم التركيب تجده مفككاً ، لم يُحسن منشئه نظمه ، وترتيبه ، فبدا عليه الضعف ، وضياع القصد ، فـ "إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلاّ إلى هذه المناسبات الخفية ، والقوية بين آياته وسوره، حتى كأن القرآن كله كالكلمة الواحدة ترتيباً وتماسكاً"[٢١]

فمهوم الأبنية الكبرى بين الدرسين العربي ، والغربي يحملان الفهم نفسه ؛ لكن يبقى السبق للدرس العربي ، ويُنهي فان دايك القسم الأول من كتابه بفكرة أنّ دلالة الخطاب واتساقه ضمن بنيات وقواعد وشروط يجب أن يترك إلى التداولية وسيكولوجية المعرفة خصوصية قصدية التواصل والمعالجة وبنيات الذاكرة[٢٢]، فينتقل باللغة من حقلها الوصفي إلى مجلها الاستعمالي.

المطلب الثاني : البراغماتية (الأفعال الإنجازية التداولية)

ظهرت اللسانيات التداولية في العصر الحديث ، بعدها "مذهباً لسانياً يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[٢٣]، فهدف التدوالية دراسة العلاقة بين اللغة ومستعمليها ، وتحديد درجة التواصل بين المتخاطبين في اللغة نفسها .

أي دراسة اللغة في سياقتها الواقعية ، لا في حدودها المعجمية ، أو تراكيبها النحوية [٢٤] ، من هذا الفهم بدأ فان دايك حديثه في القسم الثاني من كتابه ، عن تداولية اللغة بقوله :" أن استعمال اللغة ليس إنجاز فعل مخصوص فقط ، وإنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي ، فأنساق اللغة هي أمور متواضع عليها ، إذ هي لا تنظم ضروب التأثير والتأثر الاجتماعي فحسب، وإنما مقولات تلك الانساق وقواعدها تنمو وتتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع"[٢٥]، فاللغة تتجاوز مفهومها التقعيدي إلى مجالها الاستعمالي ؛ كونها رسالة إفهامية بين مستعمليها.

ويمكن تصنيف نظرية أفعال الكلام ضمن أُسس، ومنطلقات الفكر التداولي ، التي أرسى مفاهيمها الفيلسوف الإنجليزي أوستن ، وسيرل ، وغرايس، "وقد تعمق أوستن في إنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية، وتختلف عما عرفناه عند علماء الدلالة اللغويين، وخصوصا البنيويين منهم، فقد كان أوستن يلح على القيمة التداولية لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الإنجليزية، وربما في كل اللغات، فقد أدخل مفهوم القصدية"[٢٦] ،أمّا فان دايك ، التي عدها من ابرز محاور التداولية ، فهي المرتكز الرئيس لها ؛ بكونها صورة من صور إنجاز اللغة ، فإذا تكلمنا ننجز شيئاً ما ، أوسع من مجرد التكلم[٢٧].

عرفَّ فان دايك الفعل الكلامي بقوله :" فالفعل كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني"[٢٨]، أي إنّه ربط الفعل بالحدث ، الذي يحمل معنى التغيير، أي ينتقل بالفعل من صورته التلفظية إلى حيز الإنجاز ؛ لأن "الأفعال الكلامية ليست مجرد دلالات ومضامين لغوية، بل هي فوق ذلك إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو مؤسساتية أو فردية بالكلمات، والتأثير في المخاطب بحمله على فعل أو تركه، أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام أو توكيده، أو التشكيك فيه، أو نفيه، أو وعد المتكلم للمخاطب، أو وعيده أو سؤاله، أو استخباره عن شيء أو نفيه، أو إبرام عقد من العقود أو فسخه، أو مجرد الإفصاح عن حالة نفسية معينة"[٢٩]

و وضع فان دايك للفعل الكلامي الإنجازي سمات وخصائص لغرض تمييزه منها:

١- القصدية.
٢- المؤثرية والكمال.
٣- قوة انجاز الفعل.

فالفعل الكلامي لا يمكن عده فعلاً إنجازياً ناجحاً إلاَّ بتحقق القصد ، فحصول الأفعال المنجزة عن قصد ،هي ما يمكن أن توصف بكونها أفعال إنجازية مع تحقق الإرادة لذلك ربطها فان دايك بالكائن الإنساني ؛ لأنَّ " الأفعال إنما تكون في العادة واقعة صفات ومحمولات من لدن الكائنات الإنسانية فقط"[٣٠]، هذه الأفعال الإنجازية تتطلب حصول المؤثرية والكمال ، أي اكتمال الإنجاز، هذا الاكتمال متوقف على قوة إنجاز الفعل .

يذكر فان دايك مثالاً لهذا الفهم بقوله :

كون الباب مفتوحاً (وهو فعل الفتح)

حالة أولى كان فيها الباب مغلقاً

حالة نهائية كان فيها الباب مفتوحاً

حالة نهائية أخيرة تطابق الأثر النهائي مع الغرض المنشود = فعل كلامي إنجازي

فالفعل الكلامي الإنجازي هو (الفتح) ، مرتبط بحصول المؤثرية والكمال ، فقد أكون ناوياً فتح الباب منجزاً بعض الحركات ؛ لكن بدون حصول المراد أي أنَّ الفعل فشل مثلاً إذا كان الباب مؤصداً بالقفل ، فالفعل الإنجازي يكون ذا مؤثرية إذا تطابق الأثر النهائي أو النتيجة النهائية مع الغرض المنشود [٣١]، "فنجاح الفعل يتوقف على تغيير أغراض المتكلم باعتبار ما يقع من تغيير عند المخاطب نتيجة لإنجاز قوة فعل الكلام ، فنتيجة إنجاز قوة فعل الكلام ليست عبارة ملفوظة بل حالة مقصودة أحداثها ، و أوقعها فهم العبارة من لدن المخاطب ؛ حيث إن ما تتضمنه هذه الحالة من تغير هو حالة معرفية" [٣٢]، فلا يمكن عده فعلاً إنجازياً ناجحاً بشكل كامل وتام بدون إحداث تغيير، فقد يُحسب "نجاحه جزئياً إذا كان المخاطب قد فشل في فهم مقاصد قوة فعل الكلام الذي يلقيه المتكلم"[٣٣]، إذاً فالأفعال الكلامية الإنجازية تختلف عن بقية الأفعال من ناحية كمال الإنجاز ومؤثريتها ، فهناك افعال قد لا تحظى بالإنجاز وتبقى أقولاً ، فلا يمكن عدها افعالاً إنجازية تداولية ،فهدف نظرية أفعال الكلام " ،عندما ننطق ننجز شيء ما ، فأنا أتكلم بالمنجز ، الهدف منه التأثر والتأثير ضمن المحيط اللغوي الواحد، أي التأكيد على الجانب التواصلي للغة بأبعاده الثلاثة المتكلم ، والمتلقي و والنص ،لا بحديث قابل للتصديق والتكذيب.

فنظرية أفعال الكلام بمجالها التداولي ، تنظر إلى مطابقة القول الفعل ، أي مبدأ التصديق – الصدق والإخلاص– الذي أُثبتت قواعده في التراث الإسلامي والذي يتخذ صوراً مختلفة[٣٤] منها: " الصدق في الخبر ، والصدق في العمل ، ومطابقة القول للفعل"[٣٥] فالهدف من هذه الصور هو مطابقة الاخبار والسلوك والعمل للواقع ، أي أن الصدق معناه الاخبار بالوقائع ، والحقيقة هي الوقائع نفسها ، ويترتب على هذه الصور من الصدق أفضليات ثلاث[٣٦]:

أ– أن يفعل المتكلم ما لم يقل أفضل له من أن يقول ما لم يفعل.

ب– أن يسبق فعل المتكلم قوله أفضل له من أن يسبق قوله فعله.

ج– أن يكون المتكلم أعمل بما يقول أفضل له من أن يكون غيره أعمل به.

هذه الصور تقترب كثيراً لفهم فان دايك الذي هو امتداد لفكر غرايس الذي قدمه في قاعدة الكيف المشتقة مبدأ التعاون ، التي مفادها :

- لا تقل ما تعتقد أنه كاذب .
- لا تقل ما تفتقر إلى دليل كاف عليه.

فهو يؤكد على ممارسة الصدق الذي يفتح باب التواصلية بين المخاطب والمتلقي ،" ومتى تحقق المتكلم بالصدق في الخبر والصدق في العمل والصدق في مطابقة قوله لفعله ، انفتح باب التواصل الصادق بينه وبين المخاطب وتزايدت أسباب التقارب بينهما ، واندفع كل منهما في طلب التقرب من الآخر"[٣٧].

فمهوم الإنجاز الفعلي ، ومطابقته للواقع – نظرية أفعال الكلام – عند فان دايك ليست مقابلة لنظرية الخبر والإنشاء عند النحاة ، والبلاغيين العرب ، ولا نُريد التفصيل بهذا الجانب ، لكثرة الدراسات التي تناولت جذور هذه النظرية الغربية ، ومقاربتها مع النظرية العربية ، الذي نُشير إليه أن ما قدمه فان دايك من فكر عن نظرية أفعال الكلام ، نرى أثره البيّن عند الأصوليين ، وأخص، القرافي ، بوصفه نموذجاً متميزاً لعلماء الأصول ، يعد التلفظ بلفظ البيع (بصيغة مخصوصة)، إنشاء للبيع ، والتلفظ بلفظ الطلاق (بصيغة مخصوصة)، إنشاء للطلاق، ... وعبر هذا المنظور الوظيفي / التداولي – يكون الفعل الكلامي متقلب بين الخبر والإنشاء غير الطلبي ، بحسب السياقات والمقامات المختلفة[٣٨]، وحينئذ يكون الفعل إنجازياً ، قد استوفى المؤثرية والكمال من جانب ، وحقق التواصلية من جانب أخر، وعليه اختلاف رؤية فان دايك للفعل الكلامي عمّن سبقه ، فالفعل الكلامي عنده يساوي الإنجاز الذي يتجلى فيه مفهوم الصدق عند المتكلم ، والمتلقي ، ولا يخضع للتأويلات التي تحكم عليه بالصدق أو الكذب .

أي أصبح هناك نقطة التقاء بين بنية النص الدلالية بعدها رسالة إفهامية ، اكتسبت ذاك الإفهام من خلال القصد في اختيار المتواليات الجملية ، وحُسن الربط بينها، وسلامة التركيب الذي يوافق المعنى ، والمعنى الذي يطابق مقتضى الحال ، وبين أُفقها الاستعمالي، فلا يمكن النظر إلى بنية النص بمعزل عن رسالتها الإفهامية ، وإلاّ تنتفي فائدتها ، ولا نستطيع الحكم بنجاحها ، أو عدمه ، إلاّ من خلال حيزها الأستعمالي.

الخاتمة

١- سعى فان دايك للخروج بالنص من بنيته النصية اللغوية إلى فضاء أوسع ، فضاء التداولية ، وبذلك خالف علماء النصيات الذين نظروا للنص ؛ بأنّه أكبر وحدة اللغوية يمكن تحليلها ، من دون النظر إلى مجالها الأستعمالي.

٢- فهم دلالة النص ، و وسائل ترابطه تكاد تكون واحدة بين النّصيّات العربية ، والغربية .

٣- ما قدمه فان دايك عن فكرة العلاقات الدلالية وتدرجها ، لا يختلف عمّا ذكره حازم القرطاجني في معرض حديثه عن تماسك الفصل الواحد ، ومن بعده تماسك الفصول ،الذي يسبقه بقرابة سبعة قرون.

٤- مسألة الأبنية الكبرى عند فان دايك ،التي تتمثل بموضوعات القضايا داخل النص الواحد ، التي تنتظم تحت جنس أدبي معين ، وعنوان واضح مستقل ، تتناص مع رؤية المشتغلين بعلوم القرآن، والمفسرين في علم المناسبة.

٥- تفرد فان دايك عمنّ سبقه بوضع خصائص للفعل الكلامي ، التي من خلالها يمكننا تمييزه.

٦- لم تكن نظرية أفعال الكلام عند فان دايك قِبال نظرية الخبر والإنشاء العربية ، فالأفعال الكلامية عنده لا تحتمل الصدق ، والكذب ، وإنمّا هي إنجازات صادقة.

٧- نرى أن نقطة التقاء بين دلالة النص ، وتداوليته ، حيث أن الأول يعد النص رسالة إفهامية ، والثاني يحكم على نجاحها في ميدانها الأستعمالي.

الهوامش

١ : ينظر : الترابط النصي في الخطاب السياسي دراسة في المعاهدات النبوية ، سالم بن محمد ، ٣٦.

٢ : الخطاب السياسي في القرآن الكريم دراسة في ضوء علم اللغة النصي ، عدنان ناصر ، ١١.

٣ : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك، ١٢.

٤ : المصدر نفسه، ٩٢.

٥ : المصدر نفسه ، ٩٣.

٦ : الكتاب ، سيبويه ،١/٢٥-٢٦.

٧ : الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه (دراسة في المصطلح واستعماله) ،د. لطيف حاتم الزاملي ، ١٨٠.

٨ : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك،١١٤-١١٥ .

٩ : دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ٢٢٢.

١٠ : ينظر النحو القرآني في ضوء لسانيات النص ، د. هناء ، ١٨٧-١٨٩ .

١١ : ينظر : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك، ١٧٠.

١٢ : المصدر نفسه ،١٧٨ .

١٣ : ينظر : حبك النص ، منظورات في التراث العربي ، ٥٥.

١٤ : نظرية النص ...رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج ، ١٣٧.

١٥ : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك، ١٧٨.

١٦ : ينظر : الخطاب والنظرية والإجراء ، نعمان بوقرة ، ١٩٨.

١٧ : ينظر : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك، ٢٨١.

١٨ : تحليل الخطاب : ج. ب . بروان ، و يول ، ١٥٥.

١٩ : الترابط الدلالي في لسانيات الخطاب تصور تون أ . فان ديك نموذجاً ، مولاي مروان العلوي ،١٩٩.

٢٠ : مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٧/١٠٦.

٢١ : الفصل والوصل ، الدكتور بسيوني عرفة ، ٣٩.

٢٢ : ينظر : النص والسياق، ٢٨٦.

٢٣ : التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث، مسعود صحراوي، ٥.

٢٤ : ينظر : من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية ، د. بهاء الدين محمد مزيد ، ١٨.

٢٥ : النص والسياق ، ٢٨٩-٢٩٠.

٢٦ : التداولية مقدمة عامة ، خلف الله بن علي،٢٢٤.

٢٧ : ينظر : المصدر نفسه ،٢٨٩.

٢٨ : المصدر نفسه ، ٢٩١.

٢٩ : التداولية عند العلماء العرب ، ١١.

٣٠ : المصدر نفسه، ٢٩٩.

٣١ : المصدر نفسه ،٣٠٣.

٣٢ : المصدر نفسه ، ٣٤١.

٣٣ : المصدر نفسه ، ٣٤١.

[٣٤] : ينظر: تداوليات الخطاب السياسي: أ. نور الدين اجعيط:٩١.

[٣٥] :اللسان والميزان (التكوثر العقلي) : عبدالرحمن طه:٢٥١.

[٣٦] : المصدر نفسه : ٢٥٢.

[٣٧] : المصدر نفسه: ٢٥٢.

٣٨ : التداولية عند العلماء العرب ، ١٤٢.

المصادر

١- تحليل الخطاب ، ج.ب . بروان ، و ج. يول ، ترجمة وتعليق : د. محمد لطفي الزليطي ، و د. منير التريكي ، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود ، د.ط ، ١٩٩٧م.

٢- تداوليات الخطاب السياسي، أ. نور الدين اجعيط ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ،ط١، ٢٠١٢م.

٣- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت –لبنان ، ط١، ٢٠٠٥م .

٤- التداولية مقدمة عامة ، خلف الله بن علي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد ١٤ العدد ١ ، ٢٠١٧ .

٥- الترابط الدلالي في لسانيات الخطاب تصور تون أ . فان ديك نموذجاً ، مولاي مروان العلوي ، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب ،العدد الثاني ، ٢٠١٧م.

٦- الترابط النصي في الخطاب السياسي دراسة في المعاهدات النبوية ، سالم بن محمد ، بيت الغشام للنشر والترجمة،ط١ ، ٢٠١٥م.

٧- حبك النص منظورات من التراث :محمد العبد ، مجلة الدراسات اللغوية مج :٢ العدد ٢، ٢٠٠١م.

٨- الخطاب السياسي في القرآن الكريم دراسة في ضوء علم اللغة النصي ، عدنان ناصر عبود ،رسالة ماجستير ،جامعة واسط ، ٢٠١٩م.

٩- الخطاب والنظرية والإجراء ، نعمان عبد الحميد بوقرة ، دار ة الملك سعود للنشر ، ط١، ٢٠١٥م.

١٠- دلائل الإعجاز ، الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ' قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ' مكتبة الخانجي بالقاهرة ، د.ط ، ٢٠٠٠م.

١١- الفصل والوصل ، الدكتور بسيوني عرفة ، مكتبة الرسالة، القاهرة.

١٢- كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق وشرح ، عبدالسلام هارون ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ،ط١، ١٩٨٨م.

١٣- الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه (دراسة في المصطلح واستعماله) ، د. لطيف حاتم الزاملي، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، المجلد الثامن العددان ٣-٢٠٠٥/٤م.

١٤- اللسان والميزان (التكوثر العقلي) ، عبدالرحمن طه، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ١٩٩٨م.

١٥- مفاتيح الغيب ، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) دار الفكر، بيروت، ط٣.

١٦- من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية ، د. بهاء الدين محمد مزيد ، شمس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠م.

١٧- النحو القرآني في ضوء لسانيات النص ، هناء محمود إسماعيل ' تقديم ، أ.د كريم حسين ناصح الخالدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ،٢٠١٢م.

١٨- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فان دايك، المترجم ، عبدالقادر قنيني ،أفريقيا الشرق ٣٠١٣م.

١٩- نظرية علم النص رؤية منهجية في النص النثري ،حسام فرج، مكتبة الآداب، ط ١، ٢٠٠٧م.